

مهنة عمرها مئات السنين مسجلة لـحرفيي دمشق فقط

زخرفة الأثاث الخشبي بالتصديف والموزاييك



الحرفي الدمشقي يوسف ناعمة ومنتجاته من الأثاث والقطع الخشبية المزخرفة بالتصديف (الشرق الأوسط)

دمشق، هشام عدرة

والصدف (نتج 30 طرازاً) مثل الخزائن وأطقم الكنبات والبيرو والقنصليات بمختلف أشكالها وأحجامها (خزائن بللورية خشبية مصدفة ومزينة بالموزاييك لعرض التحف والأشياء الثمينة). وتصنع أيضاً العلب الفاخرة للضيافة في المكاتب والمنازل، حيث توضع فيها الشيكولاته والراحة والنوجا لتقدم للضيوف بشكل تراثي جميل. ومن المنتجات أيضاً علب المجوهرات التي تضع فيها النساء مجوهراتها الثمينة في علبة ثمينة مزخرفة بشكل جميل.

والأثرياء وأصحاب المنشآت السياحية التراثية. فهم بالمحصلة ينتجون قطعة يدوية فاخرة، ويحافظون على إرث الأباء والأجداد، كما يقول يوسف ناعمة (أبو عماد) لـ«الشرق الأوسط»، وهو أحد حرفيي دمشق في مجال تصديف وموزاييك الأثاث الدمشقي الفاخر. ويضيف أن «المهنة قديمة وتراثية، وتوارثناها أبا عن جد، ونحن منذ مئات السنين ننتج عشرات القطع المصدفة (نحو 100 نوع) ومنها الأثاث المزخرف بالموزاييك

الثراء الزخرفي واللوني ما زالت تبده اليد وليس الآلة، ونحن في عصر تحول كل شيء فيه حتى الأشياء الصغيرة إلى العمل الآلي والريموت كونترول. ولكن بعد برهة من الوقت يصدق الأمر، عندما يشاهد حرفيين دمشقيين، توارث معظمهم المهنة اليدوية عن أجدادهم وأبائهم، ما زالوا يؤمنون بالإبداع اليدوي حتى ولو أخذ منهم تصنيع كرسي مرصع بالصدف والموزاييك الزخرفي عشرة أيام، وحتى لو أن زبائنهم قليلون ومغالبا من الميسورين

الزائرين لمصحات وورش الصناعات التقليدية الدمشقية إن كان في التكية السليمانية أو باب شرقي أو سوق الحميدية وغيرها لا بد وأن يتوقف أمام تلك الكراسي الفخمة والدواوين والطاولات والمناضد واللوحات الجدارية الخشبية التي تتلألأ أمامها بالوان بيضاء وزرقاء وخضراء، حيث الخشب مطعم بالصدف ومعه الموزاييك الزخرفي اللوني. وقد لا يصدق الزائر أن كل هذا

تتناسب مع ما تحويه. وتنتج طاولات لعبة الزهر الشعبية المعروفة، وهي عادة من الموزاييك المطعم بالصدف بحيث تزال القطع الخشبية وتطعم بالصدف مكانها بطريقة فنية. وهناك قطع أخرى انقرضت تقريبا حاليا ودخلت متاحف التقاليد الشعبية، ومنها الصندوق الذي كان من أهم مفردات (جهاز) العروس ليوم زفافها وانتقالها لبيت الزوجية. وكان يستخدم عوضا عن غرفة النوم حاليا حيث كان لهذا الصندوق أربع طبقات (أدراج) تضع فيها العروس ثيابها وحاجياتها، وله مرآة كبيرة. ولكن لم يعد يصنع حاليا لوجود غرف النوم. ويضيف أبو عماد «وكان أجدادي يصنعون أيضا قطعة مصدفة تسمى (كازيه) يوضع عليها قنديل للإنارة بواسطة الجاز وذلك قبل وصول الكهرباء لدمشق في أوائل القرن العشرين. وحاليا تصنع مثل هذه القطع، ولكن للعرض والزينة فقط كترايات».

وحول مراحل العمل بهذه المنتجات التراثية قال ناعمة «أتي بالصدف من تجار يستوردونه، وهو صدف بحري والوانه الأخضر والأبيض، أو نهري من دير الزور نسميه الصدف الديري، وله ثلاثة ألوان وهي الأبيض والأصفر والزهري. ويكون عبارة عن مادة خام، ومن ثم نقوم بنقع الصدف البحري بالمياه حتى يطرى قليلا، أما الصدف الديري فهو يأتي طريا ونحافظ على وضعه والوانه الطبيعية، ونقوم بعد ذلك بتطعيم الصدف إلى أجزاء صغيرة ثم نقوم بعملية تلبيس الأثاث الخشبي بهذه القطع الصدفية وبشكل يدوي. وهنا تبرز مهارة الحرفي في إنزال الصدف بمكانها بشكل دقيق وبطريقة المبرد على الأثاث الخشبي، وحسب الموديلات، حيث يكون مكان الصدف الصغيرة محفورا في القطعة الخشبية».

وحول زبائن هذه المنتجات يقول ناعمة «إن الطلبات تتنوع بتنوع الزبائن، فمنهم من يرغب في أن تصنع له غرفة (شرقية) مصنوعة من الصدف. وتقالف الغرفة عادة من ستة كراسي وكنبايتين وطقم طاولات.

وبالتأكيد تقوم قبل ذلك بتصنيع هذه الغرفة من الخشب، وبعدها تأتي عملية التصديف الزخرفي وتنتج بعدة طرز ورسوم مختلفة وزخارف، وهي طريقة في الزخرفة لم يعرفها ويعمل بها سوى حرفيي دمشق. حيث ابتكرها الدمشقيون منذ مئات السنين وسجلت باسمهم». وحول مجالات الإبداع والابتكار في هذه المهنة يقول ناعمة «هناك مجالات واسعة ليبدع فيها الحرفي، وذلك من خلال الرسومات بالصدف، حيث يتفنن الحرفي حسب القطعة التي ينتجها. ومنها مثلا إطار لمراة، فهذا يحتاج لشكل رسم يتناسب والإطار، وكذلك بما يتلاءم مع مفردات الأثاث. فمثلا شاهد رسمنا على خزانة عرض الجامع الأموي بشكل مصدف بحيث يمكن أن تستخدم الخزانة لوضع الأشياء في داخلها وفي خارجها، وتعطي منظرا تراثيا جميلا فتقدم فوائد كثيرة لمقتنيها».

وحول توريث المهنة لأولاده يقول أبو عماد «نحن سبعة أبناء ورث المهنة ستة منا عن والدنا فيما شقيقي السابع لم يقبل العمل بمهنة والده، وأنا لذي ولد صغير حاليا (عمره 13 عاما) أتمنى أن يرث المهنة عني حتى تبقى مستمرة ولا تندثر». وحول مجالات التطوير في هذه المهنة يقول «طورنا في مهنة أبائنا من خلال ابتكار رسومات وزخارف جديدة وتطعيم الموزاييك بالصدف. والشيء المميز لهذه المهنة أنها لا يمكن العمل فيها إلا يدويا، حيث جربنا إدخال الآلة إليها ولكن لم تنتج في إتمام عملية التصديف الخاصة في مرحلة الرسوم والطرز المختلفة». ويميز ناعمة طلبات الكثير من زبائنهم كانوا يطلبون منه القطع بأشكال مختلفة ومميزة، وكان يصنعها لهم حسب طلبهم. فالسياح الأجانب يطلبون القطع التزيينية المصدفة الصغيرة الحجم، في حين هناك زبائن عرب ومؤسسات طلبت منه تصنيع قطع كبيرة، ومنهم إدارة فندق الشام، حيث صنع ناعمة للفندق أطقم الكنبات منذ افتتاحه بداية ثمانينات القرن المنصرم والموجودة حتى اليوم. وكان من المميز فيها كرسي لف بموديل

إنجليزي خاص. وهناك الكثير من قصور الخليج قام ناعمة بتصنيع الكنبات المصدفة لها بناء على طلب أصحابها. كما يميز ناعمة بين القطع المصدفة بالصدف البحري فهي أثمان، بينما النهري أرخص. والسبب أن البحري أجود ويعيش لفترة أطول من النهري. ويؤكد أبو عماد أن مهنة زخرفة الأثاث الخشبي بالتصديف قديمة جدا وعمرها مئات السنين، وهي أقدم من الموزاييك وابتكرت بشكل جماعي ولم تسجل باسم أحد كما هو حال الموزاييك الذي ابتكره حرفي دمشقي هو جورج بيطار. كما أن العاملين في هذه المهنة انخفض عددهم بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة خاصة أن هناك حرفيين كبار السن لم يورثوها لأولادهم، فلم يحل محلهم أحد في استمرارية المهنة، ولكن وجود الحرفيين الدمشقيين في المعارض الدولية يسهم في الإبقاء عليها. فهو يشارك باستمرار في هذه المعارض، وكان آخر مشاركة له في أواخر الصيف الماضي في معرض تراثي أقيم بسلطنة عمان.

يشكون الإهمال والمنافسة ويطلبون دعم هيئة السياحة

الحدادون .. لا يجيدون إلا الحدادة

سالم السبيعي، الأحساء

٢٤ سنة قضاهما محمد أحمد المبارك في محله الصغير المخصص للحدادة في الأحساء والذي لا تزيد مساحته على مترين مربعين، ورغم الدخل الضئيل الذي يوفره هذا المحل - إذا جاز أن يطلق عليه اسم محل .. إلا أن المبارك ما زال متمسكا به، بل إنه علم أبناء الصنعة نفسها، وهو فرغ للإشراف على العمل بعد أن

تقدم به العمر. ويذكر المبارك أنه يمارس هذه المهنة منذ الصغر وأنه تعلمها من والده الذي تعلمها بدوره من والده أيضا.

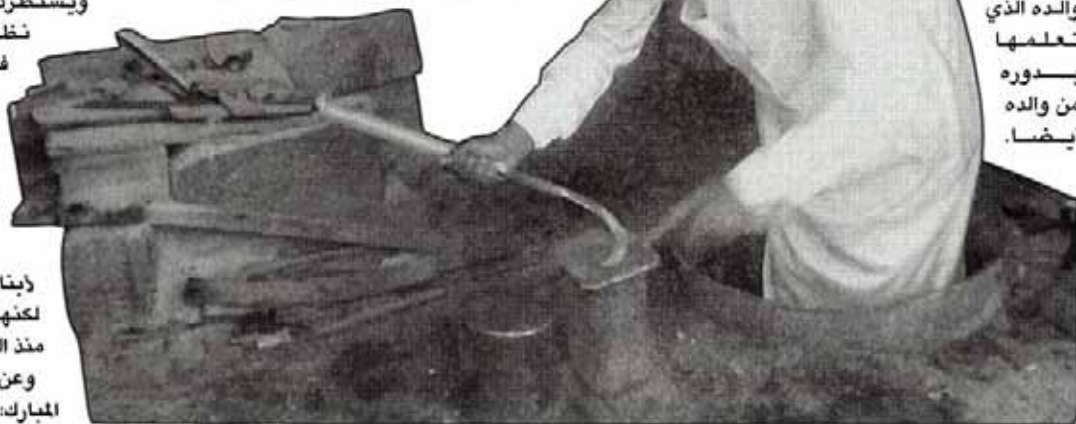
ويقول: كنت أجلس بجوار والدي منذ أن كنت في السادسة من عمري وكنت أساعده في بعض الأمور، ثم تركت الدراسة بعد الصف السادس الابتدائي، وبدأ والدي يعتمد علي تدريجيا في إدارة المحل الذي كان من المحلات المعروفة بجودة ودقة العمل، وكان يجد إقبالا كبيرا من الناس خصوصا الفلاحين الذين يشترون المناجل، السكاكين، والفؤوس، مبينا أنه تعرض للكثير من المواقف الصعبة والطريفة ومن أبرزها أنه ترك بضاعة مجهزة للبيع وأخلد للنوم وعندما استيقظ وجدها تحولت إلى رماد جراء حريق شب في محله وبعض المحال المجاورة. المبارك يتفاخر بحب هذه المهنة رغم دخلها القليل خاصة في الأعوام الأخيرة،

وقال «إنني لا أستطيع أن أستبدلها بمهنة أخرى لأنني بكل بساطة لا أجيد سواها» وأبدى المبارك تذمره من سيطرة عمالة وافدة على هذه المهنة في السنوات الأخيرة، ومن عدم دعم المواطنين الذين يزاولونها. وأضاف المبارك: أصبحت عاجزا عن تسديد إيجار هذا المحل الصغير الذي استأجرته بمبلغ ٦٥٠٠ ريال في العام بعد احتراق المحل الأول في حريق القيصرية، بسبب سيطرة العمالة الوافدة على سوق الحدادة، إضافة إلى إقبال المستهلكين على البضاعة المستوردة لرخص سعرها على الرغم من عدم جودتها مقارنة بالمنتجات الوطنية، موضحا أن كبار السن ما زالوا يقبلون على منتجات محله لأنهم يعرفون جودتها مقارنة بالمستورد من الصين مثلا.

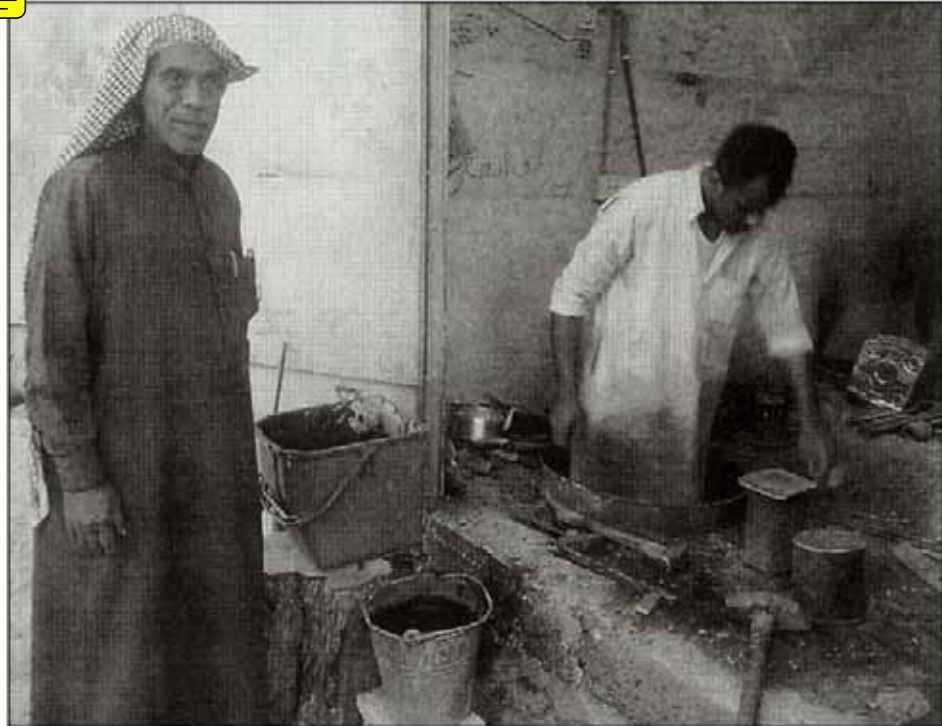
ويستطرد: أشاهد في عيون الزبائن نظرات الاستغراب لاستمراري في هذا العمل إلا أنني لا أهتم بذلك، كما أن أقاربي وزوجتي لا يبدون حرجا من عملي في الحدادة، لأنهم متفهمون للظروف.

وأوضح المبارك أنه لم يحاول توريث هذه المهنة لأبنائه وترك لهم حرية الاختيار، لكنهم اختاروها لأنهم تعلموها منذ الصغر.

وعن كيفية قضاء وقته حاليا يقول المبارك: أفضي وقتي في الإشراف على المحل، فالأبناء هم من يعملون وأتدخل



حسين مبارك يصهر الحديد.



محمد مبارك وابنه في محل الحدادة في الأحساء. (تصوير: المحرر)

تمسكت أكثر بهذه المهنة رغم معرفتي أن مستقبلها مظلم ولكن تمسكت بها لأنني لا أجيد مهنة غيرها، ومع ذلك أعاني من ندرة الزبائن.

حسين تمنى أن يحصل على دعم من صندوق تنمية الموارد البشرية لتطوير المحل، مشيراً إلى أنه تلقى وعوداً كثيرة لكنها ذهبت أدراج الرياح - بحسب قوله.

وتحدث شقيقه سامي (٢٩ عاماً) ويعمل في إدارة المحل أيضاً قائلاً: تعلمت هذه المهنة في الصغر واكتشفت أنها «ما توكل عيش» في الكبر، دخلتها لأنه مهنة أبي وجددي وبعد أن اكتشفت واقعها المرير حاولت البحث عن وظيفة أخرى ولكنني للأسف لم أجد لدرجة إنني قدمت على وظيفة عامل نظافة فلم يقبلوني، فأننا تركت الدراسة بعد المرحلة الابتدائية لعدم استطاعة والدي توفير مصاريف الدراسة.

عند الحاجة فقط، وأتمنى أن تجد هذه المهنة الدعم والاهتمام الحكومي، «فكرت عدة مرات في إيصال صوتي إلى هيئة السياحة لإبلاغهم بضرورة الاهتمام بالحرف القديمة، لأنها ذات أهمية سياحية كبيرة»، مؤكداً أن هذه المهنة سوف تندثر إذا لم تجد الدعم لأنها لم تعد مجدية، فما كنت أبيعها قبل أعوام بـ ٢٠٠ ريال سعره الآن ٣٠ ريالاً، وكذلك ارتفاع سعر خردة الحديد وهي المادة التي تعتمد عليها هذه المهنة، ولأن الجيل الحالي يقبل على المنتجات الرخيصة ولا يهتم بالجودة.

ويقول ابنه الأكبر حسين (٣٠ عاماً) وهو يتولى إدارة المحل حالياً ولم يكمل تعليمه بعد أن اكتفى بالحصول على المتوسطة: تعلمت هذه المهنة من والدي وأحببتها مبكراً فكنت أدرس في الصباح وبعد العصر أساعد والدي، وبعد أن تركت الدراسة

السعودي ناصر الميمون يأسف على ضعف الخطوط لدى جيل اليوم وإقبال معهد متخصص فيها

الخط العربي يفقد شعبيته بعد أن فرضت «الكيبورن» نفسها



ناصر الميمون خلال مشاركته في معرض الخط العربي الثاني (تصوير: سعد العنزي)

وتركيا وبعض بلاد الشام. ويضيف أنهم قالوا في الأمثال «إذا قال القلم قط... فبشر الكاتب بحسن الخط»، ومعنى ذلك أن جمال وإجادة الخط يكمن في «قط رأس القلم»، لأنه يسهل على الكاتب حركة وأنسياب الحبر داخل الحروف، لذلك كان «القط» سرا من الأسرار بين الخطاطين فيما بينهم، وبخاصة خطاطي الدولة العباسية فهم أول من بدأوا في استخدام أقلام القصب في كتابة الخط وإجادته.

بالإضافة إلى ذلك، فإن من الأدوات التي تكون ملازمة للخطاط «الحبر» وهو مادة طحينية سوداء تخرج من «المقرصة أو التاوه» التي توضع عليها الطحين للخبز، ويخلط فيما بعد بمادة الصمغ القديم، ثم يوضع عليه قليل من الماء، وهذا النوع يأتي أيضا من تركيا

الشبر والنصف، وتقطع رأسها به أجزاء بشكل مائل، وهي مجوفة من الداخل.

ويعزو الميمون استخدام القصب في الكتابة إلى ليونته ومرورته، وبخاصة في زوايا الحروف والزوايا المتعددة، إلى جانب استخدام نوع من القصب يطلق عليه «الجاي» وهو غير مجوف وقوي ومتناسك، ويستخدم عادة في كتابة الآيات الشريفة والأذكار، ويتميز بتماسكه وقوته ويمكن أن يكتب بقلم واحد من هذا النوع المصحف الشريف كاملا.

ويفصل ناصر الميمون في حديثه عن هواة الخط العربي، أن من متطلبات أدواتهم بالإضافة إلى «أقلام القصب»، هناك «المقط» وهي سكين صغيرة حادة يقطع بها القلم وتبرى بها الأطراف وتشق، وهي تأتي من بلاد فارس

مجموعة من السعوديين الكبار الذين لا تزال الهواية عالقة في أذهانهم، ويحتفظون بلوحات إبداعية لديهم، لا لشيء إلا حبا في هذا الفن الجميل الذي بات يواجه كثيرا من الجفاء، وبخاصة من الجهات التعليمية المسؤولة. وهنا يستعرض ناصر الميمون، أحد أشهر خطاطي العاصمة السعودية الرياض، أشكال وأنواع الخطوط التي يشارك بها هواة، وأدواتهم التي يستخدمونها في هذه الهواية، والتي عرضوها في معرض نظمته وزارة الثقافة والإعلام السعودية الأسبوع الماضي.

ويقول الميمون إن الخطاطين لا يستخدمون الأدوات التي تباع في المكتبات ومحلات القرطاسية، وإنما لديهم أدواتهم الخاصة وأهمها «أقلام القصب» التي تؤخذ من بعض الأشجار بمقدار

الرياض، محمد الهمزاني

بقلم من القصب لا يتجاوز الشبر والنصف، وقثينة صغيرة من الحبر الأسود، بدأت مجموعة من الخطاطين في الرياض في سطر فنون متنوعة من اللوحات تحمل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض الأشعار والحكم.

ويتنافس مجموعة من الخطاطين السعوديين في إبراز مواهبهم في فنون الخط العربي، والذي واجه في السنوات الأخيرة بعض الجفاء من محبيه، بعد أن زاحمتهم وسائل التقنية الحديثة، واستعمالات الحاسب الآلي.

وعلى الرغم من نسيان البعض هواية الخط العربي والاكتفاء بفنون الطباعات الحديثة التي تستخدم مع الكمبيوتر، فإنه لا يزال هناك

وبلاد الشام، وهو الذي يفضلته الخطاطون لخفة الحركة فيه، ويوجد منه حاليا ما يصنع في الصين.

كما أن هناك نوعين من الورق، هما «المصقول» وهو ورق ناعم، وورق «معبد أو مقهر»، وهو ورق يدهن بخليط من زلال البيض مع قطعة من الشب الأبيض.

ويكشف الخطاط الميمون عن حقيقة مهمة للهواة، ألا وهي أنهم يختارون الكلمات التي يخطونها في اللوحات بعناية تامة، لكي تؤثر كثيرا في جمال الخط المستخدم، إضافة إلى أن استخدام الخط من خلال الكومبيوتر لا يجيده باحترافية غير الخطاطين؛ لأنهم يملكون حسا جماليا في الخط أكثر من غيرهم.

ويبدو أن الخطاطين أكثر من غيرهم في معرفة اللوحات المخطوطة، حيث يبين الميمون أنه من خلال الأحرف يمكن معرفة كاتب الخط إن كان «رجلا» أو «امرأة»، مشيرا إلى أن المرأة تكون الأحرف لديها فيها نوع من الاهتزاز، بخلاف الرجل الذي غالبا ما تكون الأحرف لديه متماسكة.

كما أن غالبية السورق المستخدم في اللوحات يكون على الورق البردي وبعضه على الجلود المدبوغة والبعض الآخر على الورق المعبد أو على قماش الديباج.

ويعكف الخطاط الميمون، الذي حاز المركز الثاني دوليا في معرض «باكستان للخط العربي 2007»، حاليا على إعداد كتاب يكون مرجعا للهواة في خطوط «الثلاث والنسخ والفارسي» بحيث يكون هناك شرح واف لأنواع الخطوط المذكورة وطريقة كتابتها.

وتأسف الميمون، في الوقت نفسه، على إغلاق معهد الخط العربي التابع لوزارة التربية والتعليم قبل أكثر من 15 عاما، بعد أن ساهم هذا المعهد في تخريج أجيال من الخطاطين السعوديين، وأن هناك محاولات جادة لإقناع المسؤولين في الوزارة بإعادة فتح المعهد مرة أخرى.

ويحذر الخطاط الميمون، الذي يعمل خطاطا في وزارة الثقافة والإعلام، من التردّي الواضح في الخط لدى كثير من الطلاب في الأعوام الأخيرة، وأن ذلك عائد إلى عدم إعداد معلم الخط جيدا، وكذلك عدم وجود معاهد ومراكز متخصصة في تعليم الخط العربي.

ويأمل ناصر الميمون في أن تقوم «الجمعية السعودية للخط العربي» التي تم تأسيسها قبل عام، وتضم 13 عضوا، ضلصة أن افكارا طرحت من قبل هذه الجمعية، بتنظيم دورات وورش عمل للناشئة، ومعارض متجولة، إلى جانب فكرة لإقامة متحف خاص لجميع الأعمال الخطية، والمقتنيات الجيدة.

وكانت وزارة الثقافة والإعلام قد نظمت الأسبوع الماضي المعرض الثاني للخط العربي، وحاز المركز الأول في اللوحات المشاركة الخطاط ناصر الميمون عن لوحة «الحق يعلو ولا يعلى عليه» بخط الثلث «الجلي».

وللخط العربي 7 أنواع رئيسية منها: الكوفي، والثلث، والنسخ، والتعليق الفارسي، والديواني، والرقعة، والجلي الديواني، فيما تنقسم هذه الخطوط الـ7 إلى 14 فرعا منها؛ الإجازة، والريحاني، والمحقق، والرقاع، والشكسته، وغيرها من الخطوط.